كرة الثلج

عاطف أبو سيف *

الكتلة الطينية (1)

الشمس زرّ في قميص السماء رمادي اللون، وأنا أجلس قُبالة الكتلة الطينية أكتب قصتي/ قصة ليلى/ قصتنا. ماذا أكتب؟ في البداية سألت نفسي كثيراً عن جدوى الكتابة/ وعن لعنتها، وعن حريقها، ثم وجدتني أبحث في قعر الجبل عن خشبة ناشفة.

الأشجار غابات ميتة، والخريف ربٌّ حلّت لعنته/ بركته. لنصف ساعة أخذت أختار عود خشب يليق بهزيمتي وبطوفان الحكاية. عدت إلى الكتلة الطينية. بدا لي أن الكتلة الطينية تتحرك. اعتقدت، دائماً، أنّ الحركة أساس السكون، فلا غرابة إن تحرك ساكن، أما الكتلة الميتة!

زاغت عيناي ثم استقرتا على الدهشة الفجة. الجسد لا يقاوم إغراء الحركة. اقتضى الأمر وقوفي ساعتين كاملتين للتأكد من أن كل ما ظننت وهمٌ ومن أطياف العين الناعسة. في الأمس، لم أنم إلا أربع ساعات، صحوت بعدها بقيّة الليل ساهراً، أقضي ساعاته شاخصاً عند أقدام الجبل، أرجو ليلى العودة إلى «خُمِّ» أحلامنا. وليلى، كعادتها، لا تعود.

لا أبدو مرهقاً. طردت شبح الوهم، واقتنعت أن الكتلة الطينية/ الجسد لم يتحرك.

الآن، أبدأ الكتابة.

قلت: ستكون الحكاية المكتوبة أكثر بريقاً من تفاصيل الحياة اليومية. وربما كان ذلك الدافع وراء هاجسنا للكتابة. كان ماتيس (لعله ليس ماتيس تماماً) يقول: «إنّ الحياة أكثر صدقاً من الفن». أما أنا فكعادتي في مطالع قراءاتي، أتبنى مواقف الآخرين، لأنها آخر ما وصلت إليه موضتي المعرفية (المعرفة موضة). الآن، فقط أدرك ضياعي بين قراءتين واحدة لماتيس، والثانية لمن يرى نفسه نداً للفن، غير أن الثالثة لي. تقول الثالثة بتواصل الحياة والفن واندغامهما في لحظة تبدو كأنها الإبحار في لاهوت العقل. فللعقل لاهوت كما تقول ليلى. ما أكثر نزوع ليلى إلى تسمية

الأشياء بخصوصيتها، وخصوصية الأشياء هي محاولة لتسميتها، مثل طلاء صخرة بلون من ألوان الطبيعة – لون الصحراء أو لون الشجر أو العشب الجاف – الأمر لا يغيِّر من جوهرها شيئاً. غير أن رؤيتنا إلى الشيء تتغير حتى لو بقي هو ذاته دون محاولة المساس به.

لا بد من أنني أدرك أن البداية تكون عبر الحرف أولاً. هذا يعني بالضرورة أنني اجتزت بوابات الدخول في استكناه القول. أول مرة قلت فيها شيئاً كان منذ زمن ذهب. ربما أقترب الآن من الإشارة إلى علاقتي باللغة، أقصد بليلى بوصفها وجهاً آخر عنها، وبوصفها لغة خاصة بي.

تعرّفت على اللغة حين حاولت الصراخ. صرخت. لم أكن أدرك أنني أخرج صوتاً، ولم أتعرف على كنهه. في البداية كانت محاولاتي مقاربات للفرار من نزوعي الجانح إلى الصمت. والصمت معادل آخر للغة.

هذا أنا أتطامن مع عجزي عن تحديد فهم خاص للعلاقة الشائكة بين ما ترى عيني وما أراه في داخلي، أو بين ما يدور في الواقع وما تصوغه المخيلة عنه. مثلاً كيف أفسِّر إصراري الدائم على تفادي الواقع في سبيل البحث عن سيارة أجرة أقود بها الكتابة إلى حقول من الأرز الليلكي، حيث الحصان الخشبي يمتطي صهوة الريح الزرقاء في سباقه مع الديك الورقي للوصول إلى بذرة البنفسج. لماذا كل هذه الفنتازيا في تصوير الأرنب البري وهو يسابق طيراً في السماء في حنايا جبل المشارف المهيب. إلى أين لا أدري. لماذا تكون كل هذه المحاولات للحديث عن ليلى وسباقنا في الحياة؟.

هكذا دائماً تجنح المخيلة لأن تكون أخصب من التفاصيل، وتجنح التفاصيل للهرب من سطوة المخيلة.

مالي أنا وهذه التناقضات! مشكلتي الأولى وهي مشكلتي الأخيرة بالطبع (ليست بالضرورة ماذا عن صلاة العصر) أقول: المشكلة هي أنني قد أستطيع التعبير عن الحكاية عبر الكتابة – والكتابة صورة مختلفة عن الواقع – غير أنني بفعل الكتابة أحس أنني خنت ليلى.

قد يجدي أن أقول: إنّ ليلى كانت عشيقتي، لكنني أخون التفاصيل لأنها زوجتي، أيضاً. وخيانة التفاصيل ليست خيانة بقدر ما هي انزياح في فهمي للحقيقة. مثلاً عندما قلت لليلى: «إذا نجحت في بحثي الأكاديمي لرسالة الماجستير فسأهديه لك، وسأقول: صديقتي ليلى» (صمتتْ أقل من الدهر قليلاً، كأنه لحظة تفكير).

كان احتجاج ليلى المشفوع بالزعل والنكد ولوي البوز أنها حبيبتي وليست صديقتي. وفي مرة ثانية أرسلت لها بطاقة معايدة قلت فيها: إنها حبيبتي وعيني وروحي وقلبي. بعثت تقول: «كأنك نسيت أنني زوجتك».

إن كانت قد خانتني بهجرها إيّاي، كورقة يتيمة في حضن غابة جرداء، فلن يبرّر ذلك نكراني تفاصيل علاقتنا، لأن نكران الشيء أمر، وخيانته آخر. العلاقة وثيقة، لكنها هشة. ماذا لو كان عشقي لها خيانة لطفولتنا؟ عليّ الاعتراف بتفاصيل حكايتنا الأولى، فالميلاد أول حكايات الخليقة.

كنت أعرفها، لا أدري منذ متى بالضبط... وعيت على الدنيا وليلى ابنة جيراننا، وإن كنت سبقتها للحياة بسبع ساعات. ولدت ليلى عند الفجر، وكنت أنا قد دفعت فخذيّ أمي عند العشاء. الفرق تفاصيل صلاة أو مواقيتها. إذا كان الميلاد يشفع للبداية، فالحكاية وتطور أحداثها لا تبيح سلاسة القول ومتانة القصّ.

سأبدأ.. من أين؟

أيضاً، لا أدري.

عليّ تحديد بداية ما للعلاقة، للقصة. سأفترض جزافاً (وسأُنحي هنا وجهة نظري جانباً) أن طريق علاقتنا مرصوف بذاكرة مغتصبة. وهذا خياري الوحيد لقراءة تسلسل أحداث حياتنا، الذي لا يخضع إلى دقات ساعة الجدار القديمة، التي نعلقها في صدر غرفتنا، ولا لتراتب السنين في رزنامة ليلى الصفراء. في أحيان كثيرة لا يكون للمرء مفر إلا الركون إلى قراءات ينحي فيها قناعاته جانباً.

وعند قولي إن طريق علاقتنا مرصوف بقَارٍ أسود ملؤهُ تفاصيل ذاكرة مغتصبة، كأنني أقول: إنّ العبور من درب الحياة هو إيقاظ لأحداث غطت وجه الطريق، لتبرز لنا عفريتاً، كما يبرز وجهي كل صباح من المرآة المقابلة للسرير وأنا أتثاءب.

هكذا الأحداث ذاكرة ولدت قبل أن نعيشها، وبمجرد مرورنا بأحداثها كنا نعيدها. وسأفترض (وهذا الافتراض يرمي بي في غابات الشك) أن القصة لم تكن، وأن ليلى مجرد اسم لفتاة كنت أتمنى أن أعشقها، ودليل ذلك أن كل النساء اللاتي كنت أصطحبهن في بحر الشهوة كنت أناديهن ليلى. الأمثلة كثيرة والإحالات عدة.

هناك «ليلات» كثيرات.

أول الأمر كان صدفة، حين قابلت فتاة في مخيم العمل التطوعي على جبال بيرزيت، وصدمتني باسمها. ما أكثر الصدف في حياتنا!.

كانت ليلى قد فارقتني فصل الصيف كله، ورجعت إلى غزة، بعدما قالت إنني لن أرى وجهها أبداً حتى بعد عودتها لإكمال الدراسة في فصل الخريف في مطلع العام الدراسي الجديد ستحتجب عني. وأنا الذي لم يمنحوني، في ذلك الوقت، تصريحاً للتنقل بين غزة والضفة الغربية، كي أتمكن من اللحاق بها. شغلت نفسي بمخيم العمل التطوعي الذي تنظمه الجامعة كل صيف على جبالها. جاء المشاركون من أقطاب عدّة.

جلست على الصخرة النائية. كانت أطياف الغرب ترسم لازورداً، والبحر هناك. لي فيه أمنيتان: مدينة هُجّر منها أهلي، فلا أعود إليها إلا ضيفاً. ومحبوبة تركتني لترحل إلى مخيم قريب من همسات الموج.

دخل الوافدون، فقمت لانتظم في طابور يرحب بالمشاركين الجدد. بعد ساعة كنت أجلس مع أجمل فتاة بينهم. تركت ضفاف السين وطرقات باريس، وجاءت تقطف الزيتون في جبال رام الله لأسبوعين.

كانت ليلى أخرى.

قالت: إنّ والدها ترك تونس وهو طفل، واستقر في مرسيليا ثم باريس، وجاءت هي تجمع بين طزاجة أمها المنحدرة من ريف بروكسنيفان وحدَّة الشرق في عيون والدها.

ورحلت بعد أسبوعين تاركة صورة أخرى في أرشيف الذاكرة عن ليلى.

ومرة كانت للشتاء سطوة تدل عليها برك المياه المتجمعة على حواف الطرقات، وكانت القاهرة ضجيجاً أوله صوت عربة مسرعة وآخره صراخ عابر سبيل تاه. في ردهة الفندق المتواضع كان على الغريب أن يتقرّى حدَّ غربته. جاءت تقلب الصحيفة، وتجلس على الكنبة المقابلة. كان النادل هو من فجَّر الحديث بيننا. قال بطرافة إن الآنسة ليليان فلسطينية مثلي.

رفعت حاجبيها. اعتدلت في جلستي..

كانت وبلهجة فلسطينية «ناصروية» وأنا «يافاوي». اكتفيت من اسمها بنصفه الأول فأصبحت ليلى، وأصبحت القاهرة أغنية شتائية نلفها بمعاطفنا ونحن نسترد ما خفي من الذاكرة بين طيات السنين.

ومرة، سرقني الوقت من تفاصيلي، فخرجت في الطريق البعيد المسافر من المخيم إلى البحر عبر حقول الشوك. أوقفتني تسأل عن الطريق إلى المدينة. ركبت معها سيارتها التي استأجرتها لتمضية مشاويرها في غزة. أمضيت الشهر لا أعرف شيئاً إلا وجهها عند القبلة الأولى ولمسة النسيم وهي تكسّر اللغة العربية كلما حاولت ممارسة ما تعلّمته مني. تحدثت كثيراً عن الأندلس وزفرة العربي الأخير. مالت نحو البحر وهي تقول ربما جدي العشرون كان عربياً. سألت: ماذا ستسميني لو كنت عربية ؟. ببداهة أجبت: «ليلى». قبل سفرها بيوم سألتني: أين تريد أن تمضي نهارك الأخير معي ؟. أجبت:

– في يافا . .

– مازلت تحلم بها ؟

– ومَن ينسى أندلسَه ؟

ورحلت مثل قرطبة . .

هذه «ليلات» غيرها، وهي كلها أو منها.

ماذا لو كان كل ذلك محاولة اغتصاب لذاكرتي، لعلها تلد ليلى أخرى أو «ليلات» غير ليلى الحقيقة، لأتخلص من احتكارها مساحات شاسعة في ذاكرتي، تركض فيها كالخيل في البرية. بين هذين الافتراضين تقبع المخيلة، وبينهما يتوقف الواقع، أو يتحرك بندول الواقع / المخيلة. من أين أقدر على نسج خيوطي، ورد غطاء الجسد العاري المترف بمفاصل الحكاية.

حكايتي مع ليلى، وحكاية ليلى معي، فلا بد من أن لكل واحد منا نسخته الخاصة عن الحكاية. قالت لي ليلى ذات نهار: إنه لو قدر للمرأة أن تكتب تاريخ البشرية لكان للحضارة مسارٌ آخر، فلن نسمع عن ملوك كثيرين أو حوادث عدة، ولا حتى كنا سمعنا بشعراء تربينا على شعرهم. لاختلفت مكونات الذائقة. بكلمة أخرى: لو قدر لليلى أن تكون كاتبة هذه السطور، وأنا الجسد المستلقي داخل الكتلة الطينية لكانت الحكاية شيئاً آخر.

يا الله . . زهقت ترديد فصول السنة كلما احتجت أن أؤرخ لاختلاجات الفاكهة في عروق الأشجار، سريان الذاكرة في نسغ أصابعي. زهقت محاولاتي لقول شيء أدرك أن ليلى وحدها تعرف معناه، وهي وحدها تقدر أن تحمله للآخرين، وتريهم فحولة لفظه وبكارة معناه. قرأت مرة أن خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً، وأظنها نسبتها إلى عبد الرحمن بن يحيى الكاتب. اكتشفت ذلك بعد خمس سنين. وقد أصابت. قالت لي هذه اللغة: اللفظ فحل كالرجل، والمعنى بكر كالفتاة. هي وحدها تقدر كشف لفظي وتفسير معناي.

– أنت رجل مثلهم، لا تستطيع أن تهرب من ذلك!

وذهبت مع الريح مثل زهرة ترحل مع مجرى النهر.

يثقل كاهلي أني لا أقدر على العبث بتفاصيل الحكاية، فأرتد خائباً إلى مفاصل سيرتنا. أحاول البدء من حيث رأيت أن السيل قد بلغ الزبى. بعد محاولات عدة أفشل في أغلبها، أقول ليس لي إلا أن أقف على تلة من ردم الأحداث البائدة، أعبث بطبقاتها، أنفي الدلائل الأركيولوجية التي تحمل بذرة تشكيكي بالوهم الذي

أطلي به الأحداث . ثم أنزل من عل أبحث عن ليلى في جحيم ضياعها ، أخلع أرديتي كلّما اقتربت من نار وهمها ، قمراً يقشر أطرافه . أكون بطيخة ، وأصير ناقصاً ، فنصفاً ثم شقحة صغيرة تختفي ، أكون قد وصلت إلى عالمها اللعين . تهرب مني ، عصية على التكوين ، عصية على الهدم . أين أجد رمادها؟

من يفهم ذلك غير ليلى ! .

هي بكر حياتي وهي بكر معناي .

هالها ، ذات يوم ، أن عناة تنزل من مسكنها في القمر لتبحث عن بعل في الجحيم ، وخلال نزولها ، وفي المسيرة الطويلة ، تبدأ بخلع أرديتها حتى تصل إلى الجحيم عارية تماماً ، ثم تبدأ رحلتها العبثية من فوق . قالت : إن هذه كانت محاولة كنعانية لتفسير دورة القمر أو دورة البطيخة ، كما اعتدنا ونحن صغار أن نسمي القمر ، فالقمر كان يبدو لنا في ليالي الصيف مثل البطيخة التي ننتظرها ، ثم ينتهي به الحال بعد رحلة الشهر إلى شقحة صغيرة . لم نكن نعلم أن بطيختنا هذه إلهة . تبكي ليلى على بطيختها ، وأبكي أنا على طفلة مثلي تبكي حبها للبطيخ . . .

– للقمر . .

لما صعدت ليلى إلى غرفتها الطينية ، تخيلت صعودي لإنقاذها من وحدتها اللعينة ، رحلة عكسية قوم بها بعل (أنا) لإنقاذ عناة (ليلى) من وهم الخلود . رحلة أصعد فيها بدلاً من أن أنزل . والعلاقة بين الصعود والهبوط تبديل مواقع ليس إلا .

قبل أن أنقش أبجديتي على كتلة الطين ، عليّ أن أغمس خشبتي في نهر من دم الحكاية المراق على سفح الجبل ، حيث تهرب عناة (ليلى) من سيد الملكوت . الهروب الفاشل ، خطواتها المتحجرة في أفق الغياب ، وكلماتي المطرّزة في ثوب النهايات المتكدسة في سحب تمر ولا يهطل المطر .

– إلى أين ستفر من ليلى؟

بعد زمن قريب من اعتكافها في بيتها الطيني على قمة جبل «المشارف» ، سقطت مرغمة بعدما دفعت بها الريح . نزلت عناة من سمائها ، لا لتنقذ سيداً ، بل لتهوي ميتة عند سفح جبل لا يطأ تضاريسه البشر إلا عابري سبيل . لّما هوت محاطة بالطين لا يبدو منها أثر ، لم أفكر ولو للحظة بإزالة الطين عن الجسد . نسيت الجسد وذهلت لّما رأيت الطين .

لّما في العلى .

للأشياء نهايات أعظم من بداياتها ، أو هي صورة أخرى عنها . أسئلتي كثيرة والإجابات شحيحة . جهاز الكمبيوتر في رأسي ضرب . لم يكن همي يوماً تقديم إجابة ولا حتى محاولة استنطاق السؤال . السؤال إبحار في إجابات عديدة . مثلاً ، كانت ليلى تسألني عن سر عشقي للقمر ، وهي تعرف أن أي إجابة سترهص أسئلة أخرى عن الليالي الطوال التي كنت أقضيها متأملاً القمر لاعتقادي أنني كل يوم أنزل من هناك حيث أسكن .

– يا الله نسكن على القمر .

تعرف ليلى أنني ولدت والقمر شامة في خد السماء ، وأمي تحاول نشر غسيلها على الحبل . جاء أمي المخاض وهي تنشر ملابس أبي الداخلية . أحست بي أندفع كالنهر من بين فخذيها . صرخت . جاءت جدتي ، وهرول أبي تاركاً لعبة الورق . كانت بشارة القابلة لجدتي قد سبقت رفع مؤذن المسجد الكبير لصلاة العشاء . والقمر سؤال

ليلى الآخر .
المثال الآخر ، الذي لا يفوت ليلى استذكاره ، هو سؤالها عن كأس القهوة الضخمة ولوحة ماتيس «الراقصات» ، وكيف أنني أتوحد فيها . .
- تصبح الراقصة الخامسة !
- الراقصة الرابعة . .
- . . .
- تتوحّد معها . .
أصمت قليلاً ، تعاودني الأسئلة ، تحوم في رأسي . .
- بل أنا الرجل الذي دوّخ الراقصات فانتشين . .
- راسبوتين عصرك
- الزير . . .
- يا قاتل كليب .
- بل طالب ثأره .
أين أنا من تهاويم المعرفة . من بحثي عن الواقع . من مقدرتي على صياغة اقتراح تتوجه المخيلة ؟ . القصة ، ببساطة ، أن ليلى ولدت عشيقتي وانتهى بها الأمر زوجتي . بعد عشرة عمر ، قررتْ في ليلة بيضاء تركي . هكذا . أمّا أسبابها ! قالت ببساطة : إنها سئمت الحياة مع البشر . . .
- تريدين الحياة مع النجوم ؟
- كفاك سخافة لم أقصد .
لم أعرف ما الذي لم تقصده ؛ سخافتي أم عيشتها مع النجوم ؟ .
قررتْ تركي .
الأسباب وجيهة في نظرها . وحين أتعاطف معها ، أحاول نتف ريشي لأبدو عصفوراً أهبل ضحك عليه طفل مشاكس في أزقة المخيم . لحظتها قد اقتنع .

صعدتْ ليلى جبل المشارف ورحلتْ إلى المجهول . قلت لها : «يا مجنونة ، المشارف غريب ويخافه الناس ، وأنت تذهبين إليه بنفسك» . تحدثتْ كثيراً عن أحلامها في الخلود الكبير .
تقول : إن الأحلام جنة تعيش فيها . والفرق بين أحلامنا (ونون الجامعين هنا تشمل البشر كلهم بمن فيهم أنا) وأحلامها كالفرق بين نجمة تصعد إلى أعلى وقمر يهبط أدراجه إلى ضفاف التراب . يدفن أحلامه في حلم يعتقد أنه ملاقيه في الدرك الأسفل من النار . والنار كما تقول ليلى من اختراع البشر . الجنة فقط من خلق الله . الخلاصة البسيطة التي تضمنها ليلى حديثها أن أحلامنا كذبة وهي صورة أخرى عن النار ، أما أحلامها فهي فراديس لا يغزوها جفاف . هي الله ، ونحن البشر .
« تنزل عناة عن عرشها ، تطوف البراري .
تجدني .
الاكتشاف .
أنا في قعر الوادي صورة أخرى عن مرآة مهشمة» .
ببساطة قررت ليلى أن الفصل الأخير من حكايتها مع البشر حان الوقت لطيّه . لم أعد أفهم شيئاً . عليّ تحديد مسار آخر للحكاية ، ومضة جديدة في رأسي . .
الآن تتموضع الأشياء في أشكال جديدة . الكتابة غير الواقع . الكتابة أشكال ورسومات . الواقع مسرحية طويلة (مملة بعض الشيء) ، هذا يعني أنّ ليلى في الواقع غير ليلى في الكتابة ، غير ليلى في الذاكرة ، غيرها في الأحلام ، وغيرها عند القراءة . ليلى جيولوجيا كثيرة الأشكال ، مختلفة التوصيف . أيهما أبغي الآن؟
أريدهن كلهن ، لعلي أقبض على الروح في دهاليز العالم المكسّر ، والكراكيب ، والخربطة ، وممرات الصمت .

أحدث نفسي طويلاً عن ليلى، التي أريد، وليلى التي كانت، وليلى الآن، فأجد ليلى الحقيقية في مساحة ما، تقترب مرة من هذه ومرة ثانية من تلك. أما أنا !
السؤال أعمق من أية إجابة قد تحاول خشبتي هذه حفرها على الكتلة الطينية. أنا مرة أخرى لا أجدني إلا وصفاً لشخص لا أعرفه. بالتأكيد، أذكر عنه اسمه وعينيه ولون قميصه الّذي ارتداه في عيد ميلاده العاشر، وأذكر الدمية البيضاء التي كان يحتضنها عند شعوره بالوحدة.
أذكر أن «أنا» كان رجلاً طيباً - لعيناً، وكان نزيهاً فاتر الذاكرة. أذكر عنه، أو قد أروي على لسانه، أنه أحب فتاة تركته، أو أنه دفع بها لتركه . . «طفَّشها»، أو أن الظروف جاءت عكس إرادتهما، أو أن الناس حسدوا القرنقل على رؤوسهم فتساقط رذاذاً من نحاس مسكوب. وأروي عنه قوله إنه ما كان يحلم بنفسه جالساً على طاولة خاوية ينتظر من تتوجه بإكليل غار من حطام الأرض، من الأغاني التي تتبعثر مقبورة في جوف الصخور. إكليل غار من قشر الموز، حيث تتزحلق الأرواح في سفرها نحو الجسد.
ويحكى عنه أنه كان متناقضاً عابثاً، يهوى شطحات الروح، مستنطقاً ترحال الظل في حنايا الغابة. (يروى عن ليلى وصفها للمقابر بغابة الأموات)؛ غابة الجثث الميتة، والعيون الواقفة في مفاصل الورود الذابلة المبتهجة في عناقها لزر القميص السماوي. كان ضائعاً في بحثه عن ضياع آخر. لم يكن على العبث منه أقدر. وليلى بنفسجته ثنائية الشكل، نصفها الأول هو.
هكذا كان المسكين/ اللعين.
أما أنا؟
حطمت المرايا الموغلة في اخضرار الخريف، الشاطحة في ترحالها. أردت أن أكون «أنا» كي أعثر عليها. تقول لي في حديثها المؤرخ بـ«فصل قطف» الموز إنها أدركت، مؤخراً، أنّ لقاء جسدين لا يعني اندلاق الشهوة حين تفد من الظلال . . تستوطن الفراغ .
تذكر ليلى كل محاولاتي للسكن في الروح وفي الحلول في الفراغ. الفراغ من كلماتها الأثيرة. الفراغ كما تقول: هو الذهاب حيث تختفي الأشياء. هناك، فقط، يمكن رؤية التموضع الصريح (والقبيح) لكل الأشكال التي تعبر الذاكرة. من هذا الفهم كان نزوع ليلى إلى تسلّق الأماكن العالية للوصول حيث تختفي الأشياء . .
- ولكنك ترين نفسك.
- من تكون نفسه شيئاً خارجه؟
- أنا.
- هذا أنت معقد.
تقول ليلى: إننا ننزع إلى تعريف العالم من خلال علاقة ذاتنا بالأشياء. أي أن «أنا» تكون محوراً لأشياء بعيدة. تظن أن اختفاء الأشياء يعطي الروح فسحة للتأمل في كينونتها. الفراغ الشيء الوحيد الذي يمكن عبره الوصول إلى هذه الدرجة من البياض، حين لا يبقى في السماء غير بقايا الشمس وبواكير النجوم. والشمس حكاية متجددة في دفتر ماضيها.
قالت لي ألف مرة: لا تذكرني في قول تقوله، ولا تحس فيه بحضوري. كانت تعرف أنها حاضرة في كل جزئية من حياتي، وأنها لا تغيب إلا لتأتي مرة أخرى. أما وصيتها بعدم ذكرها، فلا وجه للأخذ بها لأكثر من سبب. أولها أنها حددت ذكرها بالقول وأنا أذكرها بالكتابة (سأتغاضى عن القائل: إنّ القول يسبق الكتابة، لأنه لا يرمي إلى شيء إلاّ القذف بحجتي)، أما علاقة

حضورها بالقول فلهذا حجته عند علماء النفس . أما الكتابة !

لا تكتب ليلى إلا أغانيها اللعينة عن الليل الذي يسافر مع النهار ، وقلما أبحرت من مطلق الذات إلى بحبوحة العالم المحيط . تقتلني بالملل الذي يحيطها ، يكسوها كطبقة الصدأ . . بتكرار نفسها . كانت ترتعب إذا قلدت الآخرين في شيء . . . في فستان رأته على صديقتها فاشترت مثله بعد شهر دون أن تدري أنها مقلدة ليس إلا . حين تكتشف ذلك تملأ الدنيا زعيقاً وتغرقها بكاءً ، أو في فكرة تخطر على بالها فتجد أنها سمعتها من غيرها (مني مثلاً) ، وأنها تكرّر ما سمعت . ترتعب حين تكتشف أنها تقلد الآخرين ، غير مدركة جسامة تقليدها لنفسها وبشاعته .

– يجب أن يرعبك أكثر تقليدُ نفسك . . أن تكوني اليوم نسخة كربون عما كنت أمس . هذا هو الرعب الكبير .

– (صمت . . . تفرك شعرها)

– هذا اجترار للنفس ، للعقل ، للروح ، للذاكرة . . .

من يدرك أنني أتحدث عن اجترارها لنفسها حين قررت تركي واللجوء إلى الجبل بحثاً عن الخلود ! من يدرك ذلك إلاّها ! .

بالطبع ، لا أحد .

* * *

أغمس خشبتي ، للمرة العشرين ، في دم الحكاية . . أنقش على كتلة الطين فصلاً في وصف ليلى . ماذا أقول عنها ؟ لا اللغة تكفي ولا الصمت يفيها حقها . عيناها حبتا برقوق وأنفها عامود نور يكلله الندى . . شفتاها شارعٌ معبد بالكرز في مدينة فاضلة . . نهداها كومتان من القشطة تتوجهما حبتا فراولة . . صدرها صالة عرض تخلو إلا من وهج الإنارة . . ما خلا ذلك عالم من الشهوة ؛ فخذان كأنهما سفن غادرت الميناء في رحلة مثيرة ، غابة من السافانا تتوسطها حبة مانجا ، في قدميها تسعة أصابع ، عاشرها طار في مقتلة الجنس الأولى حين قفزت من مخيلتي إلى السرير اللازوردي في غرفة نائية في مخيم قريب من أصقاع المدينة . .

كيف لا أدرك شهوانية وصفي هذا ؟ .

محاولة ثانية .

ليلى . . الأغنية القريبة من منابع الروح قبل صعودها ، ومن مرقدها عند رحيلها . . شعرها سفر طويل وترحال في الضوء . . وجهها أيام يبلّلها الندى ، صباحات طازجة . . عيناها ! كيف يستطيع المطر أن يقف على عتبات الغابة ولا يبلل الأشجار . . حضورها مزهرية قرنفل ذابلة تبيح عطرها في بيارات الأرجوان . . لماذا دائماً هذه الطزاجة عندما تقف أمام الأشياء للمرة المليون؟ .

طفحت أنوثتها وهي ابنة الثانية عشرة ، وأينع التفاح على صدرها في العاشرة . تلصصت على عذريتي حين كنا نخرج من المدرسة الإعدادية . في تلك الأيام كنت غلاماً تجرحه نسمة الريح إذا ابتسمت . بعد غمزتين التقينا . ذات مرة بنينا قصراً على شاطئ البحر ، جاء الليل فتركناه للموج ينهشه .

خرجنا نلهو بقصور الرمل على الشاطئ . . قلاع كبيرة . . شجرة الأسكدنيا وثمرة من تخوم الشهوة . وقفت ليلى على أطراف رموشها . جادلتني طويلاً في الفرق بين التأويل والرؤية ، وبين الظل والضوء . بعد ذلك بيومين كان طيفها على الجدار الهش لبيتنا في

المخيم . . . أعرف أن ليلى تحنّ كثيراً إلى تلك الأيام الخوالي، وأعرف شغفها في الغرق في بحور «النوستالجيا» . هدّمت قصراً من رمل وماء، وبنت آخر من زبد الموج . أعادت رسم ملامحها على الجدار، فيما الظل يسرق الضوء المسترسل من ثقب في الباب الصفيحي . قالت : إنها تسير في دربٍ تعرف أن البحر لا ينفذ منه . .

– تقصدين أنه لا ينفذ إلى بحر ؟

– قصدت ما عنيت، ولك ما فهمت .

خرجنا من الماء، وطعم البحر على الشفاه لذيذ كما فردوس الجحيم . وقفت على الشاطئ تظلل جسدها بالشهوة . همست لها لنعطي البحر أقصوصة الغناء قبل أن يتشبع بشهيق جهنم . لم ادر أن الشمس ستغيب في ذلك اليوم، دون أن نسدل الموجَ على جسدينا، حيث نعيش على هامش الرمل الأصفر، نسرج خيلنا، نغفو، نترجل . . الرمل / عيناها/ سحر البقاء/ الليل . . نمشي . . كانت الشمس تغزل طيفها . المشهد اللازوردي مرة أخرى . .

جلست على الشاطئ .

خرجت أسماك البحر عرائس من أجساد هلامية . رنت زغاريد في نواحي المخيم البعيدة . خلا الشاطئ من رواده إلا ظلين وجسد . حل الجسد بالجسد، فبان ظلان، واندغمت الأعضاء . انهارت كحبة أسكدنيا نقرها عصفور أهوج . بان جسدان، واعتلى صهوة الموج ظلٌ تسحبه شمس تغطس في قهوة البحر السوداء . . القصور وحيدة، وليلى تترك الأحلام وتغادر الظلال وتبقيني درباً بلا منتهى أو نهاية لا يقود إليها طريق . .

قادها ظلها إلى سهول من العناب، والمخيم صندوق من البوص، وهي ترفع قدماً وتضع اثنتين . لحقت بها أُلهيها عن الرحيل بالولوج في صفحات العمر . توقفت قليلاً، تذكرت الراعي الذي كنا نجالسه تحت التينة في السهل الخلفي . كأنها سألت عنه، ولما أدركت غيابه همست بأنّ فحيح الريح تقول إنه موسم الغياب . رجوتها أن تضع عنادها في سلة من القش تتركها للعصافير تعشش فيها، وتزقزق كلما عادت من أوكار الريح .

صمتت قليلاً .

ظننت أنني في طريقي لإقناعها، فأخذت أطرطشها بحججي وبياناتي، ولما جئت على قولي إن الليل سامر لا تجف شطآنه . .

– قلتَ بحر؟

– و أقول : إنّ الدرب لحن .

– إذا كان الدرب أغنية فعازف الربابة رحل .

وقبل أن تتم عبارتها جاء صوت الراعي وثغاء غنمه . كان فحل ينط على غنمة، ولحاض عينيها تقطف شهوته من ظل محاولاته لاعتلاء ظهرها . عدت خائباً . .

تركت حسرتي بين أشجار العناب، وسلة البوص تودع بحة النهار، يذهب بعيداً في أتون البحر، يستحم في الأفق . كلما دنوت من سلة البوص / من المخيم أحلت وهمي أشباحاً تسبق خطوتي، أحفر في أخاديد الحقيقة نفقاً من نور الظلام . فجأة أضيع بين الوجوه المطعوجة مثل تنكة داستها جرافة . . الجرافة التي كادت تقتل محمود حين كنا نلهو قرب زبالة المخيم نستخدمها مرمى لأهدافنا في لعبنا لكرة القدم . الشقية ليلى كيف نجحت في الإفلات من تحت العجلات المطلية بالموت .

«شفت نفسي أدخل قبر من مرمر»

وهربت .

لم أصدق زعمها بأنها ماتت لثوان قليلة وهي في عب الجرافة . . تعلقت بها، وبكيت نهارين وأنا أتخيلها تذهب بلا عودة كالموجة. نهرتني أمي ورمت ملعقتها المليئة بالأرز البارد (فهي وعلى خلاف أبي تحبه بارداً، وأبي يقول لها «والله لو انك إنكليزية ما أكلتيه») هربت من البيت. كانت ليلى ترتدي فستاناً فستقياً. شكوت لها، قالت: «أنت دمعتك نازلة دايماً». لم يستغرقني الأمر إلا عشر سنين لأدرك أن عيني سجوم، وأن الدمع يسح منها كالماء من النبع . . تنبهت إلى الدمعة تهوي بين حراشف صدري . . جلست على صخرة تعترض انحدار الطريق، وأخذت أرسم شيئاً على ياقة قميصي . . قميص ليلى الليلكي . . وسهول العناب . .

ثمّ !

غاب القمر خلف كومة من الغيوم. استظلت ليلى بطيف الطائرات تحوم فوق المخيم. تحدثنا كثيراً عن الموت القادم لو جاءت رسائل الدمار من فوق. هربت في قوقعة ثوبها الليلكي. بدت جسداً من قماش. تأوهت قليلاً، وهي تحدق فيما تبقى من القمر . .

– شقحة بطيخ.

جذبتني من يدي

– أتخاف الموت؟

– أخاف الحياة .

– أنا أخاف الأمرين .

ذهبت الطائرات خلف ظلال القمر، فانسحبت ليلى من ثوبها، حين كنت أجتر طفولتنا الماضية. لم تتذكر ليلى شيئاً من الصورة التي رسمتها لها على جدار البيت، عن طفولتنا في أزقة المخيم . . نلعب الكرة.

– أتذكرين كرتنا ؟!

نملأ الجراب المهترئ بقطع القماش البالية. نلهو بها . . أول كرة اشتراها لي والدي كانت هدية لم نستغن عنها حتى الآن . . الكرة تقف الآن معلقة من سقف غرفة نومنا الحمراء.

– عشرون عاماً !

عادت الطائرات من أفق الغيم. ارتمت ليلى تحت السرير. جاء صوتها من جوف الظلام هناك «ذاكرتنا حبات تين تيبست. تذكر كرم التين في الطريق من بيتنا في بيرزيت إلى الجامعة. الندى شهوة رائعة، وهو يغطي حبات التين، قبل أن تلقفها أفواهنا الجائعة . . . كنت أقول حبات التين . . . بالضبط كنت . . كنت أقول إن ذاكرتنا . . ».

أصرّت على الذهاب إلى النسيان، كالقمر حين يأتي من خلف السماء التاسعة. والطائرات تختفي وتأتي كأنها غرف واسعة، وأخرى ضيقة في ذاكرة صدئة. تساقط الصدأ عن الذاكرة، انفتحت الغرف بعضها على بعض، بدت صالات واسعة بعضها مظلم، والأخرى تقتلها شدة الإضاءة. دخلت من بوابة جانبية في ذاكرتها. تجولت في حواري النسيان. أضأت بعض غرفه، وأطفأت أخرى. أصبحت جداراً مخربشاً في غرفة ضيقة، حين أعاد الزمن بناء الغرف الأسمنتية في ذاكرة ليلى.

كيف يغيب القمر في غرف السماء ؟!

الطفولة تسافر فينا، تقف عند محطات بعيدة. نقلع في أغاني الطائرات. الغياب المفاجئ للذاكرة، للعلاقة الحميمة التي كانت تجمع أصابعنا العشر، والطريق يبحر بنا من المدرسة إلى البحر . . الطريق المليء بالخطوات المتيبسة على الطين، والرمل المطرز بالحصى . . وقفنا

عند ذهابنا إلى الليل الوافد من شباك الطائرة المحلقة. ظننت أنها تحمل أبي إلى مكة حيث طوافه وصلاته.
تشاجرت وليلى. أكان والدي أم والدها الذي تقله هذه الطائرة (واسم الإشارة «هذه» متغير لا يشير بالضرورة إلى نفس الطائرة). تشاجرنا، والتم الخلق علينا. خرجت جارة الطريق كاشفة صدرها الأبونسي محتجة على الضجيج الذي يحدثه العابرون من الكلمة إلى نقطة الحبر، من المدرسة إلى البحر.
توقفت رحلة الطفولة في عقل الشاب والفتاة اللذين أصبحناهما الآن، ونحن ننظر في لوحة جمعتنا أيام الجامعة، وكروم اللوز خلفنا قبل أن يزهر اللوز ثلجاً في نيسان.
توقفت الطفولة.
كنا نلهو بطائرتي الورق اللتين عملهما لنا الجار الهرم أبو درويش، وهو يستفز ذاكرته عن يافا في آخر مرة. (طبقات الذاكرة آلاف مؤلفة من طيور النسيان.. قال أبو درويش: إنّ الرحيل والخَطْب الجليل وقع وهو يرمي بطائرته الورقية من خيوطها إلى سماء أيار الملبدة بالمفاجآت.)
عندما رفعنا شراع الطائرتين حاصر الجند المخيم. هربنا بين الأزقة. كل باب أمامنا كانت تغلقه جدران جديدة، انتهينا قي براثن الدورية العسكرية. أخذوني، وتركوا ليلى بعد أن خدشوا ذراعها.
نمت في الخيمة.
بكت ليلى، وغادرت عربة النهار إلى بنفسجية الأحلام..
نزلت طفولتنا عند سني عمرنا العشر الأولى...

كنا صغاراً، وكان البيت يجاور البيت. الأهل يتزاورون كل مساء. كانون النار من طين الأرض البعيدة التي أُجبروا على الرحيل منها لما لم تقدر جيوش الإنقاذ وقايتهم شر البطش. أمي شابة تحمل في عينيها ثلاثين ربيعاً. وخالتي (وهذا لا يعني أنها أخت أمي) أم ليلى ولدت في العام الذي بلغت فيه أمي سنتها الثالثة. كان ذلك قبل أربع سنين من موسم الرحيل عن المهرة ويافا.
أكثر ما أذكره عن ليلى، بجانب لهونا في الشارع الضيق الذي كنا نسميه تجاوزاً «أسفلت الحارة» والكرة القماشية، لسعة النار حين حاولت التقاط حبة الكستناء من بين الجمرات. غابت ليلى في الفراش أسبوعين. بكيت يومها.
رأتني أمي فبكت على الطفل الذي يحب.
صعدت بنا الطفولة إلى تخوم المراهقة..
زغردت أمي.
– أصبحت رجلاً..
رأتْ أمي سروالي مبقعاً وابتسمت.
حين جاء أبي من نهاره الطويل، تمتمت له بشيء وهي تنظر إليّ. لا بد من أنها تتحدث عني. هكذا ظننت لحظتها، وهكذا أعتقد الآن، وأنا أحلل الموقف. رفع حاجبه نحوي. اقترب مني، ربت على كتفي، وخاض في حديث طويل مثل نهاره. لم أدرك ما يحدث إلا في الأسبوع التالي، حين زرنا بيت ليلى مثل كل مساء. دخل أبي وتبعته أمي ودخلنا نحن الأطفال. بدأ أهل ليلى يحجبونها عني، وبدأت أشعر بالوحدة والخجل إذا حاولت الاحتكاك ببنات الجيران.
ذات يوم رمت ليلى لي بورقة ونحن نسير إلى المدرسة..

الطريق إلى المدرسة: قافلتان متوازيتان من الأولاد والبنات. نختلس النظر. نرمي الغمزات، ومنا من يحالفه الحظ ويُرمى له بورقة تروي ظمأه. بالضبط كنت أحاول أن أقفز عن هرة ميتة تفترش الأرض، حين قفزت الورقة من الهواء. قالت ليلى: «بدي أشوفك اليوم المسا، جنب المدرسة».

ذهبت.

التقينا.

لم نعد طفلين

رحلت الطفولة مثل الطائرات الورقية. نتذكرها ولا نملكها.

كبرنا سوية، ودخلنا الجامعة. فاض الكيل بنا، فتعانقنا وتطارحنا الأحلام، وحرثنا شهوتنا، فأينعت فراديس الحب خلوداً وصار قمرنا شمساً، وتكورت أغانينا لوحة عن وجه الأرض قبل رحلة كولومبس.

أزهر اللوز ثلجاً في نيسان، فاندلقت الذاكرة زيت سراج غفا. قطفت اللوز وجئتها أحمل عمري في ثنايا التلال الخضراء. أكلت حبة واثنتين وثلاثاً، ثم نامت قرب جذع لوزة صبية. تساءلت عن اللوز الذي يزهر ثلجاً، فانتفضت زهرة/ انتفض جسدها، وأينعت الشهوة. كم كان اللوز شقياً.

جسدها ليل وهضاب وتلال ووديان.. يا لروعة السهل. أنا عابر سبيل أريد رشفة ماء لأمضي في دربي المزروع بالأحلام. لم تعد بي قوة تحتمل الغرق في تفاصيل الليل. والذهاب بعيداً حتى منابع العدم، حين تلتقي الأغاني بعازف الساكسفون (الثري اللعين). لم أعد أشتهي الثورة على الذات المسكينة الملعونة في كل فلسفات الزهد والتصوّف. التصوّف في الجسد درب من الجفاف والقتل مع سبق النية. الجسد الذي عبدت يوماً، ويممت شطره يوماً، وآليت ألا يكون له شريك في أيام أُخر.. الجسد الذي كان نهاراً أصبح ليلاً، والذي كان منه ظلاً أصبح وهماً، والذي كان قرباً أمسى صحراء من الرمل المتحرك، أمسى فراغاً..

حديثها عن الفراغ أغنيات سفر في درب مرجاني، صوتها يرتفع، وأنا ضائع في تلاوة الماضي. أمتطي صهوة تجربتي: عنيفة.

أخذت بيدي.

ركضنا في درب لا نعرفه. كأنها فجأة انتبهت أنّ الدرب نهاية الكرة الأرضية. كدنا نسقط في الفضاء. تعلّقنا بآخر موجة من الجاذبية الأرضية. صاحت:

– كم ضيق هذا العالم!

(اكتشاف سخيف)

– أضيق منه غيابنا.

نجونا.

كم تَلَتْ من الآيات الباهتة عن الرماد. مللت سؤالها عن الهامش خوفاً من ولوج المركز حيث... لشيء في داخلي يؤلمني، مر مرارة الرؤية، يعصرني ليمونة ناشفة. لا أقدر على وصفه. كثيراً أظنه الصمت، فآوي إلى الكلمات فأجده ما لا يقال. أحسّ مرات كثيرة بمعدتي تتقلص وأمعائي تغوص في هوة سحيقة. أذهب إلى الطبيب الذي يمل سؤالي المتكرّر عن أعراض لم تكشف عنها أشعة X.

---

* روائي وكاتب فلسطيني يقيم في غزة.

(1) الفصل الأول من رواية بعنوان: «كرة الثلج»، ستصدر قريباً.

هواجس الإسكندر(1)

أكرم مسلم *

«لا أكتب الجميل . . أكتب الذي لا ينسى»
حسين البرغوثي
«مرايا سائلة»

-I-

شخصيات «حقيقية»، تنتمي إلى أزمان مختلفة من أزمانه، تمنى دائماً أن يزجّ بها إلى دوامة الأحداث في روايته، منذ كانت الرواية مثل غيمة من طاقة، تسبح في مكان ما يجهله . . أراد أن يورّط «الشخصيات» في أحداث تخصه هو . . . كثيراً ما تخيّلها هياكل عظمية صالحة تماماً ليكسوها لحماً، بمقاسات يختارها، ثم «ينفخ فيها من روحه»، لتنطلق بعدها إلى حياة لا تخصها . . إلى حياة من صنع يديه .

حاول مراراً أن يلصق طينته على هذه «الهياكل»، لكنها سرعان ما كانت تلفظها، لقد وُجدت مكتملة بما لا يحتمل أية إضافة . . مكتملة «لدرجة الاحباط»، «شخصيات» مكتفية بذاتها إلى أبعد حدّ، مُحكَمة الإغلاق على معانيها، عصيّة على احتمالات الآخرين . لقد بلغت أقصاها وكأنها بنات خيال مكتمل !

– أم ترى أنني بلا خيال وبلا روح؟ كثيراً ما تساءل الراوي بلسان أثقلته جلطة دماغية حديثة، وبحسرة معجونة بشغف أهوج .

كان يتذكر «الشخصيات» ويستذكر تفاصيل أغفلها . . مغيّراً ومعدلاً زوايا رؤيته لها :

«صاحبة الشرفة»؟ ! ما الذي تريده مني بالضبط؟ كنت، في غربتي، أجلس دائماً على شرفة سكني في الطابق الثالث، وكانت تقطن في الطابق الخامس من جهة اليسار، في البناية المقابلة، وعلى مدار اليوم والساعة، كانت تطل من شرفتها . . تنفض كلّ ما تقع عليه يداها مما يمكن نفضه : أكياس النايلون، الصحف القديمة، الأوراق والشراشف . . . لكن الغريب، أنها كانت تنفض هذه الأشياء من «لا شيء» . . . الأشياء كانت نظيفة تماماً . . ومنفوضة توّاً!

لقد ربَّت لدي حساسية مُريعة من خشخشة الأكياس الفارغة والصحف!

صاحبة الشرفة؟!

لقد علقت في مكان ما في داخلي أنا، وأصبحت مثل حملٍ ثقيل، لقد سكنتني، ومنذ تلك الأيام، وأنا أنفض نفَسيَ منها، علّها تسقط وتريحني.. أحاول دون جدوى!

.. «الوسواس».. يسمّون هذا النفض من أشياء غير موجودة؛ علماء النفس.. وهذا اختصار.. اختصار جائر «عَقّبَ، بملامح تدل على أنه يتكهن بمشاركتي علماء النفس في هذا التفسير، وتجهَّم كأنه يسجل نقطة لصالحه ضدي، في مسألة لم أبد فيها رأياً!!».

.. و«أحمد الغريب»، إنسانٌ من لحم ودم، أيضاً، عاش «هنا»، وبإمكانك الخروج إلى الشارع، وسؤال أي شخص يصادفك ليؤكد لك ذلك، إن كنتَ تكذبني!

– العفو!!

– هذا المخلوق، عرفته منذ طفولتي الأولى، لا أحد يعرف عنه غير اسمه، ولا أحد يعرف من أين جاء، أو لماذا جاء.. ولماذا اختار منطقتنا بالتحديد، قال: إنّ اسمه أحمد، وأضاف الناس له صفة الغريب، إجابات باقي الأسئلة ظلت ألغازاً، وربما تعمد هو، أيضاً، أن ينساها.

.. المهم، الصغار كانوا، بشكل عام، يخافون منه، والكبار كانوا يختلفون فيه، يُجمعون على أنه جاء إلى منطقتنا مطلع الستّينيات من القرن الماضي، وكنت أنا، شخصياً، سبباً أساسياً لهذا الإجماع، ودليلاً دامغاً أمام كل مَن يفكّر في الخروج عليه..

.. اسألني: كيف؟

– اعتبرني سألتُك؟

– أمي هي السبب، فقد انتبهت أنه في يوم مجيئي إلى هذه الدنيا تحديداً، جاء هو إلى المنطقة.. أنا بزغتُ من رَحمها.. وهو بزغ من المجهول.. هي، انتبهت لتزامن الحدثين المهمين.. الناس كانوا معنيين به، هو، كحدث مهم، ولمّا بدأوا يختلفون حول توقيت ظهوره، حسمت أمي الأمر.. مرّة واحدة وإلى الأبد. التوقيت صار ثابتاً من ثوابت حكايته.

.. لا أخفي عليك أن هذا الربط، بيني وبينه، غمرني وقتها بشعور ما بالفخر، أو، بانتماء ما خاص، لقصته.. هناك خيطٌ ما ربطنا معاً؛ أنا دليلٌ دامغٌ على شيء ما يُدلّ عليه، ذلك اللغز الكبير! لي موقع ما مضمون تماماً، بحكم الصدفة، في هذه الحكاية؛ لا أحد يستطيع القفز عن هذا الثابت في الحكاية وتجاوزه، وبالتالي القفز عنّي وتجاوزي!!

مات «أحمد الغريب» في منتصف الثمانينيّات من القرن الماضي، ودُفن كما يليق بميت له أهل، التقديرات تشير إلى أنه عاش أكثر من ثمانين عاماً.

العجيب، أن هذا الغريب، أمضى كل تلك السنوات (من مطلع الستينيات حتى منتصف الثمانينيات) ماشياً، وظل محافظاً على الطريق نفسه، وعلى الاتجاه ذاته.. لم يفعل شيئاً في حياته سوى المشي.. يمشي (وحده طبعاً) ويحدّق في الطريق التي يضربها من حين إلى آخر بعصاه، تلك التي ترافقه كذراعه.. وكأنه يهشّ بها على سنيّ عمره.. ربما «نوبة سعال حادّة».

يمشي ويحدّق في الطريق التي يضربها ويضرب أشياءها من حين لآخر. صوت «طرطقات» العصا، صار جزءاً من الحكاية.. صار دليلاً عليه؛ تقديماً لحضوره في لحظات السكون.. صوت أقرب ما يكون إلى الهمس

الناعم الملتبس، ليس من الصعب تشخيص ذلك الصوت بالنسبة للمهتمين به.. وللمسكونين به من أمثالي!

كان مستغرقاً في التحديق بداخله. فيما بعد انتبهت إلى طول هذا التحديق وكأنّ أحداً لم يتفرّغ للتحديق بهذه الأغوار، بمعزل عن أيّ شيء آخر، مثلما فعل «الغريب»، كان يتعامل مع التحديق مثل مهمة عليه انجازها بأسرع وقت ممكن!

.. دائماً فكرتُ فيه. الناس من حولي، كانوا ينسجون حوله الحكايات، ويثيرون بشأنه أسئلة من ذلك النوع الذي يعنيهم.. يسألون بعضهم بعضاً الأسئلة ذاتها، رغم أن أحداً منهم لا يعرف ما يمكنه إضافته للآخرين، فنمط حياته مكشوف ومعروف.. ومحفوظ عن ظهر قلب؛ ليس من قبَل الجميع، بل من قبَل أولئك الذين يوجد منهم في كَل مكان.. أولئك الَذين «يشتغلون» عادة، ولأسباب غير مفهومة، مثل حرّاس على الحكايات..

.. لا يذكر أحد أنه مرض في يوم من الأيّام.. يشرب من إبريق بلاستيكي أخضر كالحٍ، يحمله دائماً معه، نبتت عليه وفيه طحالب في أماكن مُقنعة، يأكل من منازل ثابتة ومعروفة بحكم العادة ودون أي اتفاق.. فهو يجلس في محطّات محدّدة؛ في ظل جدار استنادي أمام منزل ملاصق للطريق، أو تحت شجرة في أقصى حديقة، لا يسبب جلوسه تحتها إزعاجاً لأحد.. عندما يصل، يراه أول ما يراه الصغار، فيشيعون «خبره» لكبارهم.. الذين يرسلون له مع أطفالهم الفرحين (دون سبب واضح) ما تيسّر من طعامٍ (متقشف غالباً) يأكله، ويعود إلى «إنجاز» مشيه!.

كنتُ أحسد أولئك الصغار المحظوظين، على ذلك الاحتكاك الممكن مع «شريكي» الذي لا يعرفني، فأنا الذي يعنيني أمر هذا الرجل أكثر منهم، لا يمكنني الاقتراب منه، منازلهم كانت مجاورة للطريق، وإطعامه لم يشكل عبئاً على أحد، فبالكاد يأتي «الدّور» مرّة على البيت كل شهر أو شهرين. كان يمشي، على ما أظن، بين ثماني إلى عشر قرى من قرى المنطقة، فيمرّ عن كل قرية مرّة تقريباً كل عشرة أيام.. يمشي بين القرى، كأنه أصبح خيطاً وهمياً يربطها معاً من دون قصد.

مسألة النوم (بالنسبة للسائلين عن النوم) كانت محلولة، ومعروفة للجميع: محطات ثابتة على طول الطريق بين القرى، عبارة عن تجاويف صخرية (نسمي واحدها «الشقَيف») ملاصقة للطريق، على الرصيف تماماً، وبالكاد تكفي لتقيه بلل المطر وأشعة الشمس..

غطاؤه.. عباءة على كتفه، وفي الشتاء يضيف إليها (أو يضيف إليها الناس) بطانية متواضعة!

تذكَّرت، أيضاً.. كان دائماً حليق الذقن.. لا أعرف أين وكيف كان يحلق ذقنه؟!

.. من الأسئلة التي لم تُحَلّ، والتي أرّقت الناس (وأرّقتني إلى حين) أسئلة من نوع: ألا يعوزه ما يعوز الرجال من النساء؟ أيُعقل أنّه «يُشبع حاجته بيسراه»!..

في الحقيقة، هذه الأسئلة هي التي صمدت طويلاً، ورغم أن طرحها كان يؤجل إلى مرحلة متقدمة من «المداولات الدورية»، أدركتُ أن ما يسبقها، كأنه مجرد تمهيد لها.. كانت تتأخر؛ هذه الأسئلة، بعد أن يتم التأثيث لها.. كأنها لا يصح أن تُطرح مرّة واحدة.. ورغم تأخرها، بقيت الأكثر صموداً وحرارة وحدّة وتأريقاً.

لا تنس (قال الراوي، وما كان أخبرني بالذي حذّرني من نسيانه) أنّ من الناس من تعامل مع «الغريب» كـ«وليّ

من أولياء الله»، ورجّح بعضهم، (خصوصاً النساء)، تفسير كونه «مخاوياً»؛ أي: متخذاً له أخلاّء من الجنّ، ومداخلات أصحاب هذه القناعات كانت تحسم هذا النقاش لصالحه، حيث تشتد مع استمرار النقاش شوكه المؤمنين به، رغم تورطهم في الأسئلة «المحرجة» ومشاركتهم فيها، إلا أنهم كانوا أول من يبدأ الانسحاب، عبر الحيل المعروفة في إدارة الأحاديث؛ «المداولات» كانت تنتهي بصيغة لا يظهر أيّ من المشتركين فيها، وكأنه من أنصار احتمال «إشباع الحاجة باليسرى»!!

في حلقات «السواليف» تلك (التي بدت من بعيد، مثل حلقات من كتل لحمية، ضرورية ومُقْنعة، لا يكتمل المشهد من دونها)، نما خوف مكبوت وَمتنكر، متنكر بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى.. خوف مكبوت منه، ذلك الغريب المتجوّل.. هذا الخوف، صار مع الوقت، عندما «يطفح» عند بعضهم، يعبّر عن نفسه على شكل تضخيم مبالغ به للرجل..

كان هناك محتجون دائماً، سرعان ما يتملصون من احتجاجاتهم ويهذبونها، تحسباً من شيء حقيقي مخيف، ربما لا يدركونه هُم.

.. وحده «صاحب الأذن المشرومة» لم يكن يستسلم لهذا التضخيم، خاصة عندما أضيف له تفصيل محدد، ذلك الذي يجعل للرجل قدرات جنسية هائلة، تفوق قدرة البشر، قدرات أوقعت جنيّة بالغة الحسن في هواه، لدرجة جعلتها تحكم عليه بالحياة على هذه الشاكلة، حتى تشاطره الليل في هذه البراري، دون أن يعكّر صفوها أحد!!

لم تعجب هذه التأويلات معظم الرجال، ربما ذوداً عن فحولتهم، لكنهم تصرّفوا كما في معركة مع عدوٍّ مقتدر: تقدّموا وتراجعوا، هاجموا وانسحبوا، وانتظروا.. لكنهم لم يجرؤوا، أو بالأحرى لم يستطيعوا حسم «المعركة».. تمنّوا أن يفقأ شخص ما هذا الدُمّل، الذي يهدد وجودهم.. لم يستسلموا الحقيقة (أو لوَهْم) وجود نموذج صارخ وعار على هذا المستوى من الفحولة.. فهذا الحديث إذا ما سُمح بترويج الإيمان به، سيصل إلى «حجرات» نسائهم، وسيزعزع «عروشهم» من أساساتها الأكثر صلابة ومتانة.

«مشروم الأذن» لم ينتظر ولم يتكتك ولم يهادن، فمن أوّلها أنكر هذا التكهن، وقاد أعمالاً «انتحارية» لإخماده في مهده.. فهو كما قال، رأى في حُلُمه جنيّة، جاءت إليه، وأخبرته أنه ليس لدى «الغريب» ما «لدى الرجال» أصلاً..

قالت الجنيّة: إن «الغريب» خاف ذات ليلة من خليلاتها الجنيّات خوفاً شديداً، وإنه من شدّة الخوف، ابتلع بَطنُه «ما في أسفل بطنه»، وبهذا خلق «مشروم الأذن» توازناً جدّياً وأبدياً في النقاشات..

.. كانت التساؤلات تندلع يوم مروره من القرية.. وكأنه يشعل نار الحكايات.. التي ما تلبث أن تبدأ بالخفوت مع مغادرته، تدريجياً.. لتشتعل في القرية التي بعدها.. وهكذا!

كان يجدد الحكايات.. يمشي، رأسه في عمامة بين كتفيه.. أسمر البشرة، مصلوب العود.. مشدود العصب.. العبارات التي تفوّه بها معدودة على الأصابع.. العبارة الوحيدة الراسخة في ذاكرتي وفي ذاكرة القرى، عبارة: «يلعن أبو البَليّة».. التي كان يجيب بها على كل سؤال.. ويعبر بها عن كل شعور (إنْ صحّ تعبير شعور على هذا الرجل).. لقّبته شلل الأطفال بـ«أبو البلية»؛ كان له اسم.. صار له اسم

ولقبان.
لن أقول لك (لم أطلب من الراوي أن يقول لي شيئاً) عن تفسيراتي للعبارة «اليتيمة» تلك، ولما يمكنها حمله من معان في هذا السياق.. فهذا لا يهمَ كثيراً.. أو إنه يدخل ربّما في سياق روايته هو.. سأقول لك، فقط، ما يتعلق بروايتي أنا.. وما يخدمها.

.. مات «الغريب» في منتصف الثمانينيات.. أوقف الموت مشيته التي طالت حوالي ربع قرن، لكنه ما زال إلى اليوم يمشي في مكان فيّ أنا (ضرب على صدره بقوّة لم أتوقعها منه).

ما زال يمشي داخلي ولا يهده التعب.. حتى أتعبني.. أحاول إيقافه كلما انتبهت إليه دون جدوى.. تماماً مثل «صاحبة الشرفة» التي ما زالت تنفض أكياسها وصحفها في أعماقي وأحاول نفضها.. وكأنّ «صاحبة الشرفة» لا تكفيني!

لم أستطع الاقتراب، ولو خطوة واحدة، من «الغريب» في طفولتي، وفي أول شبابي غادرتُ القرية.. غادرت ولم يكن الاقتراب متاحاً لي.. ورغم ذلك، سكنني شعور عجيب دائماً، هو أن من حقي على هذا الرجل أن يخبرني بكل شيء.. دون أدنى فكرة عن ذلك الـ«كل شيء».. كنت واثقاً من وفائه بهذا الحق حتى معرفتي بوفاته.. دون أن يعرفني أصلاً. مات ولم يقل شيئاً لا لي ولا لغيري، مات و«مات سرّه معه»..

تبدلت نظرتي إليه.. وانتابتني مشاعر من كل صنف تجاهه.. لكنه لم يتغيّر.. لم يتغيّر!

والآن.. إنه مجرد يضايقني.. يضايقني كل هذا المشي في أغواري.. المشهد كله يضايقني.. بكل جزئياته.. بصوت «طقطقة» عصاه تضرب الشارع.. فتتردّد أصداؤها في وديان فراغي.. أتخيل أغواري غرفاً فارغة.. أحاول ملأها بأثاث وهمي علّه يمتص الصدى.. صوت العصا.. صوت خشخشة أكياس الفتاة العشرينية؛ صاحبة الشرفة.. هذه المشاهد، وهذه الأصوات تحك على فراغي.. تُلِحّ في الحكّ إلى حدّ الألم!

يضايقني مشيه في أغواري.. أحياناً أعرقلُه فيقع أرضاً ويتهشّم وجهه، جرّبت تدبير حوادث دهس مروعة له كي «أتخلص منه».. لكن هيهات.. فهو سرعان ما ينفض جروحه وكسوره وموته مثل غبار.. ليعاود سيرته..

.. قد تستغرب!

– وقد لا أستغرب!

– نعم، معك حق.. المهم، طوّرت مع مرّ السنين مؤامرات كي أتخلّص منه ومن الفتاة العشرينية في آن معاً.. «ضربتهما» معاً.. كنتُ أحياناً أتخيّلها على شرفتها في الطابق الخامس.. تنفض أكياسها النظيفة، فيأتي هو من خلفية المشهد، يمسك بها بعنف، محاولاً اغتصابها.. بكل قوّته التي علَّقت به أنثى من الجنّ.. بكل قوته فوق البشرية، الفتاة تقاوم مثل ثور.. يتعاركان.. ويسقطان في «الأبدية البيضاء».. لكنهما سرعان ما يبزغان في عوالمي من جديد!

كان وما زال يمشي فيّ.. انتبهت لاحقاً أنه لم يكبر.. بقي كرجل خمسيني صلب البنية.. لم يختلف عليه شيء.. وكذلك «صاحبة الشرفة»، بقيت عشرينية في داخلي.. كنت أصبغ حاجبي كل منهما، وما ظهر من شعرهما.. هو بالأسود.. وهي بالأبيض.. فيزول اللون خلال ساعات، كأنه صبغة من نوع رديء.. إنهما لوحتان مكتملتان فعلاً!!

.. وهل حدّثتك عن الوغد ابن الوغد.. جدّي لأبي؟!

- كيف، وأنا بالكاد أعرفك ضحكت.
- ألا تعرف كيف تمت زيجته؟!
- ما دمت لا أعرفه فكيف سأعرف عن زيجته، ثم.. هل زيجة جدّك من عجائب الدنيا، مثلاً.. يعرفها جميع الناس، وأنا الاستثناء الوحيد؟
- معك حق.. معك حق.. فيما بعد قد أحدثك.. أنا متعب الآن.. أتعبتني الصور.. أتعبتني كثيراً (قال، وعلى وجهه ملامح انكسار غامض).

-II-

- قبل كل شيء، لي طلب شخصي عندك..!
- تفضل.. اطلب! «قلت»
- لا تقتل كلباً على مرأى من صغير لك.. بفأس!
- أعدك أن ذلك لن يخطر لي ببال حتى.. ولكن ما المناسبة؟
- من دون مناسبة.. خاطر وخطر لي!
.. اسمع:
أمي قتلت رجلاً ذات يوم.. لا أعني أنها طعنته، او اطلقت عليه النار، بل تسببت بشكل أو بآخر في موته! كانت ملاكاً.. ملكة جمال حقيقية كما يقال، وصارت حديث القرية قاطبة، بل وامتد صيتها الى المنطقة جميعها منذ «اندلاع».. شبابها (فشبابها اندلع مثل حريق).. كانت من ذلك النوع من الفتيات اللواتي يصبحن موضوع حديث الجميع.. فتتحول حارة سكنى الواحدة منهن الى محج للشبان العازبين والغاوين وغيرهم.. اولئك الفتيات اللواتي يضفين على حي بأكمله نكهة ومذاقاً خاصين، معهن يصبح لكل حجر في المنطقة معنى مختلفاً.. انهن يخلقن رهبة ما لحي بأكمله.. فيبدو كأنه حي مسحور!

الجميع أحبها.. وتمنى من أعماق أعماقه أن ينالها.. جنية الشبان كانت.. ومرتع خيالاتهم الجامحة الصاخبة.. وكونها من أسرة عادية الحال، لم يمنع جمالها من حكم خيالات منطقة بأكملها.
أحبّها الجميع، وتمنى خطبتها، لكن الجميع خافوا من «التقدم لخطبتها»، لقد تحوّلت ألى ما يشبه امتحاناً صعباً ومصيرياً ومفضوحاً.. مفضوحاً إلى أبعد حدّ.. حيث لا يمكن التكتم على خبر دخوله.. وبالتالي إخفاء الاخفاق فيه.. لقد كان امتحاناً تحت الأضواء الكاشفة وعلى مرأى من الجميع.. تحول التقدم إليها إلى امتحان مجنون، على مسرح مجنون، مجنون بأمي!
وحدث أنْ تجرّأ أحدهم، عادياً كان.. وكانت من «نصيبه»، بدا الامتحان أكثر سهولة مما توقع الجميع.. لم يصدق أحد أنّ شخصاً عادي الحال والجمال والجاه سيقطف «وردة القرية» بهذه السهولة.. تلك الشابة التي جففت سيرتها حلوق كل نساء القرية.. ورقصت القلوب بلا استثناء.. لكن هذا ما حدث!
طلب الرجل يدها.. ووافق والدها (جدي لأمي)، تمت الخطبة، وبعدها مباشرة جرى حفل الزفاف.
حفل الزفاف كان مهيباً.. كلّ القرية شاركت في ذلك الحفل.. لكن، في قلب كل رجل سار في الزفة.. كانت هناك جنازة حقيقية (جنازة في داخله)، جنازة لحلم لم يعد صالحاً ليبقى حلماً.
تبخر كل شيء.. شعر الرجال (المرشحون لها) بخسارتهم، احترقوا ندماً على خوفهم الذي بدا ساذجاً.. وها هم يزفونها مثلها مثل أيّة فتاة أخرى.. إلى فراش رجل متواضع الحال.
انتهت زفّة الرجال، التي تنظم وفق التقاليد في النهار، غنى الناس، وأكلوا، وفي المساء، «صمدتها» النساء..

كن فرحات على الاطلاق، غنين ورقصن «من قلب ورب» . . ليس ابتهاجاً بالتأكيد . . بل لأنهن خلصن منها . . لقد اسدلت الستارة على مسرح الجنون . . ها هي «ملكة» القرية تزوجت . . ولن تظل بعد اليوم مفتوحة على الاحتمالات في مسرح حياتهن وحياة القرية . . لن يظل سياق الحديث عن زواجها فرصة لزج تعابير الاعجاب والانبهار والمقارنات من هنا وهناك . . لقد انتهت «اللعبة» إلى حد ما . . أو إنها وضعت في نطاق القوانين ، صارت لها أبعاد واضحة . .

. . اشرب شايك . .

- اشكرك . .

- دخلت العروس بعد «الصمدة» غرفة نومها . . وتبعها العريس مجللاً بصرخات الصبية والاصحاب والفضوليين . . وما ان رفع العريس «الجلوة» عن وجهها ورآه . . حتى خرّ ميتاً من فوره، مات الرجل من مجرد رؤية وجهها!

تحولت «ليلة العمر» (وهذا يحدث في الدنيا) إلى آخر ليلة في العمر . . صرخت العروس . . وصرخت قريبات العريس . . وحسب التعبير الحكائي الريفي «رفعت فراش الهناء . . ووضعت فراش العزاء»! ورفعت مرة أخرى الستارة عن «مسرح الجنون»، الجنون بأمي . . لكن السيناريو انقلب رأساً على عقب . . .

إنّ قصة من هذا النوع لا تنتهي هكذا بسهولة . . لقد مات الرجل، وبقيت حكاية موته، لقد مات من مجرد رؤية وجهها . . وحتى قبل أن «يأخُذها!» . . فمن ذا الذي يجرؤ على دخول اختبار مع الموت؟! خاف الجميع من دخول امتحان مكشوف ومفضوح مع جمالها في السابق . . الآن صارت القصة، أيضاً، قصة حياة أو موت!

حمل موت الرجل تفسيرات من كلّ نوع: الحسد، والرهبة، والقدر، و«فعائل» أحد من أجداده أو أجدادها، حيث «إن خطيئة الأجداد قد تظهر لعنة على جلود أحفادهم ولو بعد حين»، إلى آخر هذه التفسيرات . . لكن النتيجة واحدة: خاف الجميع . . ورميت أمي بالنحس . . . لم يكن سهلاً ذلك اللقاء الصارخ بين الجمال والموت في تلك الليلة من ليالي القرية!

ليس فقط، إنهم خافوا، فالموت حينها أتاح فسحة للضعف كي يعبر عن نفسه، الرجال الفاشلون نفخوا بصورة مبالغ بها على هاجس النحس ليبرروا «خيبتهم»، وبصورة أدق، تآمروا من أجل حرف سياق «المعركة»، معركة أمي، إلى اتجاه آخر، لقد حاولوا ، ربما، إغلاق الطريق أمام احتمالية عودة اللعبة الى قوانينها الأولى، اقصد: لعبة بلا قوانين.

النساء، أيضاً، أخرجن حسد الماضي والحاضر . . فتواطأن على المستقبل . . للتحكم في سياقه وأدواته . . الموت أعطى الفرصة لكل هؤلاء، فصارت الفتاة الصغيرة «منحوسة»، كي يستريحوا هم، حولوا أمي إلى حقل رعب . . النحس كان في معظمه رعبهم، لقد سيجوها برهبة مقبرة، هكذا بالضبط، كل ذلك الحب والخوف والحسد الجماعي تحول فجأة الى كره، ليس كرهاً بالتحديد . . إلى شبه إجماع على الاقصاء . . اقصاء جائر لا ذنب لها به . . فعلت بهم ذلك لأنها جميلة، ولذلك فعلوا بها ما فعلوا!

. . اعذرني . . أردت أنْ أحدثك عن حلم لها، لا عن أحداث تخصّها، لكن الحديث يجرّ حديثاً، كما يقولون . . دعني اثرثر!

. . . مات العريس، وانسحبت القرية من حبّ امي

الشابة . . وكأنهم وجدوا فرصة أو ذريعة سهلة للتخلص من اختبارها . . مرّت سنتان، مرت سنتان ولم يتقدم لخطبتها أحد . . «وجه الشؤم» تلك!

فجأة، ودون أية مقدمات او تمهيد، وكعادته، ظهر أبي (رحمه الله) وطلب يدها من والدها . .

جدي لأمي كان نزيهاً . . لم يحدثه أحد عن دمغة النحس التي وصمت بها ابنته الوحيدة . . . لكنه فهم كلّ شيء . . بل، إنه من باب «اراحة الضمير» . . حكى لوالدي عن تلك المخاوف . . وفتح موضوع ذلك الموت . . قال: إنه يحب لأبي كل الخير . . وطلب منه أن يتأكد من نيته . . وأن يعاود تقليب الموضوع ودراسته جيداً ، أبي لم يكن من اولئك الذين ينطقون فيعاودون التفكير، لأنهم نطقوا قبل أن يفكروا ، فالكلمة عنده كلمة، لذلك لا تخرج هكذا جزافاً.

استشار جدي ابنته وفق العادة، وقبلت مسكونة بالخوف . . حتى هي لم تفلت من الخوف . .

. . ليلة دخلة أبي على أمي . انحبست أنفاس القرية، انتظر الجميع موتاً ما، ومنهم من أدرك أنّ غطاء النحس الذي تسلى به اوشك على الانكشاف فانحبس نفسه في انتظار صدفة ما . . بعضهم راجع خوفه وتواطأه . . وعرف انه يسدد ضريبة ذلك غالياً . . . غالياً.

دخل العريسان . . ولم تصرخ امي صرخة الموت . . صرخت صرخة التحوّل، صرخة البكارة . . وفض ابي مع بكارتها، تميمة النحس تلك . . إلى الأبد!

بالنسبة لأبي لم يكن الأمر امتحاناً ، بل مجرد زواج . . لقد دخل ما اعتبروه هم امتحاناً مع الموت . . فأكد لهم من حيث لا يدري انهم لو دخلوه لنجحوا . . جدي لأمي كما قلت لك كان نزيهاً، وكان بالغ القوة . . لم ينجب غير امي . . تزوج مبكراً كالعادة في تلك الأيام . . أنجب وحيدته في العام الاول . . ولم ينجب غيرها، واكتفى بذلك على عكس العادة.

لازمته دائماً «موهبة» دخول كل أصناف الرهانات الشعبية على القوة، (تلك التي كانت شائعة في ريفنا في تلك الأيام) . . وبعد زواج أمي مباشرة، «تفاقمت» معه حمى الرهانات . . وفي أحدها حمل صخرة . . ضخمة . . ضخمة بمعايير «عمالقة» جيله . . ورغم تجاوزه الخامسة والثلاثين نجح في رفع الصخرة عن الارض إلى مستوى الصدر . . احتفظ بها للحظات ورماها . . اصيب على يبدو بنزيف داخلي . . ومات بعدها بيومين.

قرويون كثيرون ماتوا بهذه الطريقة . . فالإنسان هو الانسان . . له الهواجس ذاتها، ولكن ادوات التعبير ومستوياتها وأشكالها تختلف . . والا، فماذا تسمى كل أشكال المغامرات والمسابقات والرياضات الخطرة؟!

مالَكَ ولهذا الحديث!

كان أبيَ وكأنه قُدَّ من صخر . . لا أقصد جسده وحسب، بل وروحه أيضاً . . لم تكن جافة . . بل حادّة وصارمة مثل مقصلة . . زواجه من أمي لم يضف كثيراً لصورته، صَحيح أنّ القرية صارت تعرفه كمن «اختطف زوجته من فم الموت»، لكنه، كان كذلك دائماً . . فرغم انتسابه لـ«فخذ» ضعيف وقليل العدد من عائلات القرية، ورغم عدم تدخله في أحد . . على الرغم من ذلك، رسم حدوده بحدّ السكيّن . . سكيّن لسانه، ولا أي منفذ كان من الممكن أن يؤدي إلى مناطق معينة في داخله . . ولا أية حيلة لغوية كانت تنطلي عليه للانتقاص من قدره مثلاً . . . مثل سلك كهرباء مكشوف كان . . ما أن تلمسه بغرض الإَساءة . . حتى «يَلطشك»!

الناس يتعوّدون، وتعوّد الناس على ذلك . . الكثيرون

ممن جربوا معه خسروا كثيراً . .
أمي كانت ولوداً . . تتلقف البذر كأنها «طمي نهر» . . «زَرّيعتُها» (على حد تعبير العجائز في ذلك الزمان) كانت قوية . . كانت تنجب وتنجب وتنجب، كأنها خلقت للانجاب فقط . . وضعت 18 «بطناً» وعاشوا جميعاً . . أنا ثامنهم، وخامس الذكور العشرة، كانت تنجب وكأنها تنتقم من وحدانيتها . . من الموت الذي خطف عريسها الأول في لحظة امساكها بطرف فرحة عمرها . . والموت الذي خطف والدها مبكراً . . وربما، لا علاقة لانجابها، لا بهذا السبب ولا بذاك . . (دائماً أبحث عن أسباب!!).
قد تسأل أين عشنا، وكيف؟ . . هذا البيت القديم الذي نحن فيه الآن، والذي عدتُ إليه مثل كل ولد خائب، كان لأمي وللصغار منّا . . بيت قديم يعود لعشّرينيات القرن الماضي، (إنْ كنت تنتبه لأجيال المعمار في قرى بلادنا) . . بجانب البيت من اليمين، كانت غرفة ملاصقة له من حجارة وطين، ينام فيها الذكور الكبار في السن، انهارت فيما بعد وزالت آثارها . . أمّا أبي فكانت له سقيفة (متواضعة وبسيطة، لكنها بالغة الترتيب)، قبالتنا هناك في أقصى «الحوش» . . انظر هناك في زاوية الحوش . . تماماً إلى جانب شجرة التوت، لقد شاخت شجرة التوت، انظر جرّة الفخار الملاصقة لجذع الشجرة . . إنها تعود لتلك الايام . . وما زالت صامدة . . منها كنّا نشرب جميعاً!!
على كل حال، كان هذا البيت «يُصّدر» ابناءه مبكراً . . إلى الزواج . . والغربة . . حيوات كثيرة خرجت من بين هذه الجدران . . حكايات وحكايات.
أمي كانت تنجب (وهنا أصل بك إلى الحلم)؛ قبل أسبوع من كلّ ولادة ترى حُلُماً غريباً . . حدثتنا عنه . . وسكَنني . . وأراهن أنه سيسكنك:
شيخ كبير السن، وقور . . نوراني الوجه . . جهم البنية . . طويل اللحية أشيبها . . يرتدي دشداشة بيضاء . . وحَطّة بيضاء من دون «عقال»، حَطّة بيضاء ناصعة، كان «أبيضَ بأبيض» كلّهَ . . . يأتي من جهة الخلاء (لم يكن بيتنا محاطاً بأي بيوت، كان على حافة الخلاء تماماً) . . من هناك يأتي الشيخ إلى أمي في الحلم . . يطرق باب «الحوش» (كان له باب من صفيح) بعصاه، يطرق الباب بخفة ويتنحنح: يا ساتر (يقول).
أمي، منفوخة البطن، تقف على الباب هنا وراءك تماماً . تسمع الصوت فتقول: «اتْفضّل يَ خوي» . . يدخل الشيخ حاملاً كتاباً بيمينه . . قالت هي إنه (القرآن).
في الحلم تكون وحدها . . يجلس هو حيث تجلس أنت الآن لتسمع حكايتي . . وأمي تجلس مكاني . . يفتح كتابه ويبدأ بالقراءة . . أمي كانت «أميّة جداً!»، لا تفكّ ولو حرفاً واحداً، ولا تحفظ قرآناً ولا غيره . . إنها تنجب فقط . . كان يقرأ، وهي تسمع نصاً لا تعرفه . . نصف ساعة تسمع آيات لا تعرفها . . تَخيّل!!
كانت تسمع نصاً غائباً . . فهي لا تذكر شيئاً من ذلك الذي سمعته . . لكن ذلك الكلام الذي لا تعرفه كان يُدخلها إلى عالم غريب من البهجة والطمأنينة . .
يوم حدثتني كنت صغيراً . . ولم أكن أعرف نصّاً ألبسه لحركات شفاه ذلك الشيخ . . فقط شفاهه تتحرك بنصّ أجهله . . لكنه موجود . . الصورة ظلت هكذا: هيئته، كلماته القليلة . ونصه الغائب.
لم ينته الحلم بعد . . فالشيخ ما أن يختم قراءته، حتى ينادي أمي لتقترب منه، يناديها: اقتربي يا ابنتي، كتابه مفتوح على ركبتيه، تقترب وتنظر في الكتاب، فيقول:

ميسَّر ميلادك يا ابنتي . . مولودك ذكر هذه المرّة (أو أنثى) . . وهذا هو اسمه، انظري . . ويشير إلى كلمة في الكتاب : اقرأي، مكتوب كذا . . سميه (أو سمّيها) كذا!

الغريب، أن أمي لا تقرأ ولا تكتب . . ولا تحفظ قرآناً ولا غيره . . لا أعرف من هذا الذي سمّانا جميعاً . . ولا مرّة تغيّب عن ميلادها . . ولا مرة أخطأ في تحديد جنس المولود . . في الصباح، كانت تحدث أبي، الأمّي أيضاً، وكانا يعتمدان الاسم .

الأكثر غرابة من ذلك، أنني عندما كبرت . . راجعت الأمر جيداً . . لم أجد ولو اسماً واحداً من أسمائنا، مذكوراً في «القرآن» . . ثماني عشرة مرة زار الشيخ أمي . . وحمّلها ثمانية عشر اسماً . . الأسماء غير موجودة في «القرآن» . . من الذي سمانا بالضبط؟! شيء محير فعلاً!

كانت أمّية . . وما أعرفه أنا، أنها كانت صافية جداً، إلى حدّ لا يمكن وصفه . . تتقاطع مع أبي في أنهما يلتقطان الأشياء فوراً . . يريانها طازجة دون أي وسيط . . كانا يتلقّيان الأشياء مباشرة . . أشياء كأنها مما قبل اللغة . . أو مما بعدها؛ وإلاّ، فكيف قرأت أمي وسمعت نصّاً لا تعرفه؟! أنا أصبحت شيئاً آخر . . خمسة عشر عاماً، وأنا أبحث عن هؤلاء الوسطاء بيني وبين الأشياء كي أرميهم . . اهترأتُ، وأنا أحفر وأرمي . . ولست متأكداً من أنني نَظفت .

استفدت مَن الحلم . . أعتقد أنه أفادني جداً . . في مرحلة ما رميت اللغة . . لأرى مثل أمي التي رأت دون تعب . . وحكمت خيال القرية بجمالها دون تعب، رميتُ ورميتُ . . أشياء كثيرة جداً . . وأنا ابحث عن «حلم الإسكندر» . . وبقيت هذه الصور . . هذه المشاهد . . تعاندني . . تتحرك في فراغ، فراغ رهيب . . تؤلمني وتزعجني : . «أحمد الغريب» . . «صاحبة الشرفة» . . بطن «الغريب» «يبتلع ما في أسفله» . . شفاه الشيخ الذي سمانا جميعاً تتحرك بلا صوت . . أنفض نفسي مثل «صاحبة الشرفة» . . لكنهم عالقون . . عالقون جيداً . . كأنهم خلقوا لهذا الغرض . .

. . في أيام حلم أمي لم تكن الكهرباء قد وصلت إلى قريتنا (في الستينيات ومطلع السبعينيات)، الشيخ كان يبزغ من الظلمات . . من الخلاء . . قبل أن نبزغ نحن من ظُلمات الرّحم . . «الغريب» بزغ من ظلمات المجهول . . تماماً يوم بزوغي أنا من رحم أمي . . أدفع نصف عمري . . (بل دفعت نصفه وأكثر) لأعرف من ذلك الشيخ الذي اختار اسمي! هل هذا شيء يمكن أن يعرف؟ من يدري؟!!

. . . وهل قلت لك : إن الفضيلة، في رأيي مليئة، إلى حدّ مريع، بعقد الذنب تجاه الحياة؟

- لا، لم تقل لي .

- أعرف أنني لم أقل لك . . ورغم ذلك أسأل «!!!» .

* روائي وصحافي فلسطيني يقيم في رام الله .

(1) الفصل الأول والثاني من رواية للكاتب ستصدر قريباً .